دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مساكن مطماطة بتونس: مجال للتصوير تحت الأرض
المصدر:	مجلة جماليات
الناشر:	جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم - مخبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية
المؤلف الرئيسي:	نجم الدين، رمضان
مؤلفين آخرين:	إلياس، بوخموشة(م. مشارك)
المجلد/العدد:	مج7, ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2020
الشهر:	جوان
الصفحات:	232 - 254
رقم MD:	1130204
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	مساكن مطماطة، التراث المعماري، الحفريات الأثرية، تونس
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1130204

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مجلة جماليات | المجلد 07/ العـدد: 01 (2020)، ص. 232- 254

مساكن مطماطة بتونس مجال للتصوير تحت الأرض

Matmata Dwellings in Tunisia : an Underground Field For Cinematography

رمضان نجم الدين[1]*، د.بوخموشة إلياس[2]

[1] جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، najemeddine.ramdhane@univ-sba.dz

[2] جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، cineliasb@gmail.com

مختبر بحث النص المسرحي الجزائري جمع ودراسة في الأبعاد الفكرية والجمالية، جامعة سيدي بلعباس

تاريخ الاستلام: 2019/04/14 تاريخ القبول: 2019/05/30 تاريخ النشر: 2020/06/28

الملخص:

يعتبر البحث عن مسكن هاجسا إنسانيا على مر العصور، حيث تتجلى إرهاصات الحاجة إلى المأوى مع الإنسان البدائي، الذي التجأ إلى الكهوف والمغاور ليحتمي بها من أخطار الطبيعة. وتعد الرسوم الموجودة على جدران هذه الكهوف، خير دليل على مرحلية تطور وتقدم الشكل الأولي للعمارة، وانفتاحها على ممارسات مبتكرة. وفي هذا الإطار سندرس علاقة الصورة بالعمارة ودورها في التوثيق والحفاظ على نمط معماري يعد إرثا إنسانيا . فالمساكن الحفرية ب**مطماطة** ليست آثارا بدائية، بل هي شكل معماري انتشر في هذه المنطقة التابعة لولاية قابس التونسية، في حقبة زمنية ليست بالبعيدة. نمط مستدام يدعونا للبحث في أسراره وترسيخ قيم المحافظة على إرثه المنحوت تحت الأرض، ونؤكد بذلك على دور الفن من جانب الصورة والتصوير السينمائي في علاقته بمجال جغرافي فريد.

الكلمات المفتاحية: مسكن، الحفرية، نمط معماري، التصوير السينمائي، الفن.

Abstract:

The search for a dwelling has been a human obsession over the ages, as the need for shelter is evident with the primitive man, who resorted to caves to protect himself from the dangers of nature. The inscription on the walls of these caves is a step-by-step demonstration of the evolution and progress of the initial form of architecture and its openness to innovative practices. In this context, we will examine the relationship between the image and the architecture, searching its role in documenting and preserving an architectural style that is considered as a human heritage. The Troglodyte houses are not primitive, but rather an architectural form that has spread in this area of the Tunisian state of Gabes, in a period not far away. A sustainable pattern invites us to look at its secrets and to establish the values of preserving its carved underground heritage. In doing so, we emphasize the role of art through image and cinematography, and its relationship to a unique geographical area.

Keywords: Dwelling; Troglodyte; Architectural style; Cinematography; Art.

✱ **المؤلف المرسل: رمضان نجم الدين**،najemeddine.ramdhane@univ-sba.dz

1. مقدمة:

انتشرت على كامل المجال العربي عامة، والمجال المغاربي خاصة، أشكالٌ معمارية متنوّعة وتقليدية، تتسم بمقومات الاستدامة، وتعد إرثا شاهدا على مدى تكريس أجدادنا لفكرة ملاءمة العمارة لبيئتها. ومنه يمكننا الحديث عن تشابه هذه الأنماط رغم الاختلافات البسيطة. خاصة وأن المواد المستعملة في كامل ربوع هذا المجال متشابهة، كونها موادا أولية وليدة مجال متشابه، باستثناء بعض الاختلافات الجغرافية المتمثلة في اختلاف التضاريس ونوعية التربة.

غير أنّ فكرة أن نبني منازل تحت الأرض تظلُّ شكلا فريدا يتسم بالغرابة. فنحن إزاء نمط مغاير ومختلف عن قواعد العمارة والتعمير. إذ يقوم نمط السكن بـ**مطماطة** على عملية الإلغاء والتفريغ من خلال الحفر، لتكوين فراغ محدد، وفق شروط وضوابط مدروسة، جعلت منه نمطا معماريا صامدا إلى يومنا هذا. إلا أن هذا الصمود يظل نسبيا لما يواجهه المسكن الحفري بـ**مطماطة** من عزوف وعبثية وتلوث بصري، بإدخال أنماط دخيلة على التركيبة العمرانية للمنطقة، وانهيار بعض هذه المساكن بسبب الإهمال وقلّة الترميم.

وهذا ما مثل حافزا لدراسة نوعية، نبحث من خلالها عن آفاق جديدة ومبتكرة تمكننا من تحديد صيرورة التراث المعماري والعمراني بالمنطقة، ونقترح حلولا ورؤى تعالجه. وبما أنّ العصر هو عصر الصورة والتكنولوجيا بامتياز، علاوة على ما شهدته المنطقة من خلال السّياحة من تجارب تصويرية بأشكال مختلفة. ارتأينا الى رؤية فنية، ندرس من خلالها علاقة الصورة بالعمارة التحت–أرضيه بـ**مطماطة**. لنصل إلى بلورة نتائج وتوصيات في هذا الغرض.

2. مساكن مطماطة نمط معماري محفور عموديا :

1.2 تقديم عام لمنطقة مطماطة:

تقع **مطماطة** جنوب غربي ولاية قابس من الجنوب الشرقي للبلاد التونسية، وتبعد حوالي 40 كلم عن خليج قابس وهي منطقة جبلية. وهي أهمّ وأشهر موقع من بين مواقع وقرى سلسلة جبال **مطماطة** التي أخذت تسميتها عن هذه القبيلة البربرية، نظرا لأهميتها ومكانتها المرموقة.

وهي إداريا دائرة بلدية، تضمُّ عدة قرى متفرقة على مجال هذه السلسلة الجبلية، ومتنوّعة معماريا. " تفصل بين مرتفعات **مطماطة** منخفضات على هيئة أحواض شاسعة

تراكمت فيها على فترات متباعدة حبات رمل ترسبت وكوّنت ما يعرف باللوس أو الغرين. تُكوِّن الأحواض مشهدا طبيعيا يتراوح بين الهضاب والسهول المنبسطة "[1]. مثل هذا الشكل من التضاريس، ونوعية التربة المحلية المعروفة "بالتزمزة"[2] مقوّمات أساسية لظهور هذا النمط، سواء أكان في **مطماطة**، أم في بقية قراها التي حفرت مساكنها في مواقع أخرى من السلسلة الجبلية كزقرارين وهداج وتشين...

2.2 مكونات المسكن الحفري:

يتكوّن المسكن الحفري من نواة أساسية تدعى "المهراس"، وهو أول ما ينطلق منه في حفر كل مكونات "الحوش"[3]، فناء داخلي يتجاوز عمقه أحيانا العشر(10) أمتار يكون شكله دائريا أو مربعا. "المهراس" هو المركز الأساسي للنشاطات اليومية، والتمتع بأشعة الشمس بعيدا عن أعين الناس. وكأغلب أشكال العمارة العربية التقليدية، يعدّ الفناء ميكانيزما للتكييف، حيث ينخفض الهواء البارد أسفل الهواء الساخن، وهو ما يوفر انتعاشا وتهوئة طبيعية، خاصة في الفترات الطويلة من السنة التي تتسم بدرجات الحرارة العالية في هذه الربوع. لنستنتج أن التكييف الهوائي واحد من أبرز الميزات الجذابة للعمارة الحفرية، وأحد مقوّمات الاستدامة بها، حيث إنّ فارق درجات الحرارة بين الداخل والخارج صيفا يمكن أن يتجاوز 15 درجة.

"ينفذ إلى داخل الحوش عبر ممر وحيد، وهو عبارة عن نفق يسمى "الخارج" يصل وسط الحوش بخارجه. يضيق في طرفيه ويتسع في وسطه حيث ما تمسى "بالسقيفة"، وهو عبارة عن نفق متعرج يخفي ما بداخل الحوش. يحتوي هذا النفق في وسطه الأكثر اتساعا على غيران صغيرة محفورة في أحد أضلاعه، لإيواء الدواب والمواشي خاصة في فصل الشتاء، ولوضع المعدات الفلاحية. ينتهي هذا الخارج بالباب الرئيسي الوحيد للحوش، وهو

عادة ما يكون بابا ضخما نسبيا يصنع من خشب النخيل. ويتم بناء حائط حجري كبير كواجهة للمسكن الحفري"[4].

"تتفرع في المستوى السفلي من "المهراس" غرف تختلف في بعض تفاصيلها ومقاييسها تسمى باللهجة المحلية "الدار"، وهي غرفة سكنية كبيرة يبلغ قياسها 8م على 5م، تكون في بعض الأحيان في شكل غرفتين مفتوحتين على بعض"[5]. وفي الحقيقة نظن أن تسمية الدار لم ترد بشكل اعتباطي: فمن خلال الدراسات الميدانية يتأكد لنا أن "الحوش" الواحد يمكن أن يضمَّ أربع عائلات كحد أقصى، ولكل عائلة غرفة مستقلة، وهذا ما نرجحه سببا لتسمية الغرفة "بالدار" في نمط عمارة **مطماطة**، كون هذه الغرفة هي بمثابة النواة المستقلة لعائلة بأكملها. ومنه تتقاسم مجموعة هذه العائلات المتفرعة بدورها من نواة عائلية واحدة، بقية الأفضية الموجودة حول المهراس، كالمطبخ الذي يكون عادة بالقرب من المدخل الرئيسي. هو فضاء بسيط وصغير، حيث تحفر غرفة لا يتجاوز عمقها 4م أين نجد اليوم آثار الطبخ من دخان وبخار يغطي سقف هذا الفضاء باللون الأسود، كشاهد على تراكم مخلّفات الطبخ على فترات طويلة في أغلب هذه المساكن.

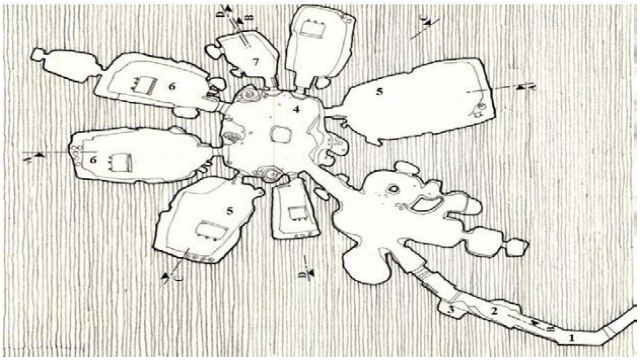

الشكل 1: مخطط لمسكن حفري بمطماطة (تونس): 1.الخارج، 2.السقيفة، 3. مغاور لحفظ المعدات، 4. المهراس (الفناء)، 5. دار، 6. دار، 7. غرفة خزن.

المصدر: Y.ben youusef, o.suslova, Troglodyte and architectural features of traditionnel dwellings in the great sahara,AMIT 4(94),2019, page 103, quoted from Andrés Louis.

أما بالنسبة لغرف المستوى العلوي من "المهراس"، وهي التي تؤثث الشكل العام للتركيبة المعمارية لهذا النمط. حيث تحفر الغرف مباشرة فوق البيوت السفلية، "بحيث تتوسط الغرفة سقف بيتين متجاورين. ويتم الصعود إليها عبر مدارج حجرية مبنية، لتؤدي هذه الغرف دور خزن الزّيت وبعض الأدوات. في حين يصعد إلى الشكل الثاني من الغرف، والتي تكون أصغر حجما من خلال درجات صغيرة محفورة. وتخصص هذه الغرف لخزن بقية المحاصيل من حبوب وزيتون. تطلق عليها تسمية "مخازن"، حيث تسكب المحاصيل عبر فتحات في سقف هذه الغرف، متصلة بسطح الأرض في الأعلى"[6]. وهذه طريقة لعزل المحاصيل وتخزينها على امتداد سنوات طويلة، نظرا لما تشهده منطقة جبال مطماطة من فترات جفاف طويلة، وتساقطات غير منتظمة.

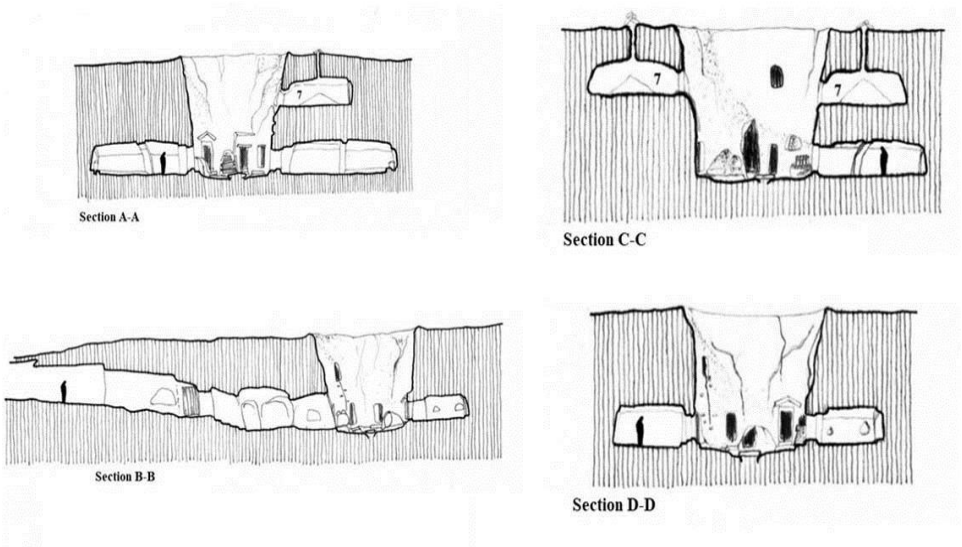

الشكل 2: مقطع لمسكن حفري بمطماطة.

المصدر : Y.ben youusef, o.suslova, Troglodyte and architectural features of traditionnel dwellings in the great sahara,AMIT 4(94),2019, page 104, quoted from Andrés Louis.

3.2 الانفتاح نحو التجربة السياحية:

إنّ مجموع هذه الخصائص المتنوّعة والثّرية التي تؤسس لنمط معماري غريب وغير مألوف، ويتسم بمقوّمات الاستدامة بالاستغلال الأمثل للموارد والمواد والإمكانات البيئية، وهي ما جعلت من "حوش" الحفر شكلا هندسيا فريدا تحت الأرض. حيث إن هذه الميزات التي مكنت الإنسان من التماهي في جوف الأرض، على عكس الأنماط الهندسية الأخرى التي يمارس فيها الإنسان فعل السكن وهو فوق سطحها، أو في النمط المنقور أفقيا، كما هو الحال بالنسبة للقصور والقلاع الجبلية.

مثلت هذه المقوّمات البيئية والمعمارية ل**مطماطة** عاملا مهما لانفتاحها نحو تجارب عديدة. "فخلال ستينات وسبعينات القرن الماضي ومع توجه الدولة للسياحة كرافد اقتصادي لمشروع بناء اقتصاد الدولة الحديثة، حصل استغلال مكثف لهذه السلاسل الجبلية في سياحة المجموعات"[7]. ليغيّر هذا التوجه الوطني بالمنطقة نمط العيش السائد، فانتقلت **مطماطة** من "حوش" منغلق على أهله إلى فضاء استكشاف واستطلاع. "فكل حوش في **مطماطة** زاره السّياح من جنسيات مختلفة، أطلوا على سكانه حتى أنّ أهالي **مطماطة** بما فيهم الصغار تعوّدوا رؤية السياح"[8]. لقد تعوّدوا على ذلك من كثرة السّياح الذين يمرون بهم، تعوّدوا على العيون المحدّقة وتأوّهات الاستغراب وأضواء الفلاشات وعشرات الألسنة التي ترطن متسائلة عن طريقتهم في الحياة"[9] . وهذا ما يحيلنا على دراسة علاقة جديدة لثنائية الصورة والمكان، أو الصورة والعمارة لفهم ما صار إليه هذا التراث بالمنطقة.

3. علاقة المسكن الحفري بالصورة والتصوير:

1.3 معمارية الصورة:

"من المعروف أنّ الصورة، في مفهومها العام، تمثيل للواقع المرئي ذهنيا أو بصريا، أو إدراك مباشر للعالم الخارجي الموضوعي تجسيداً وحساً ورؤية "[10] ، وبما أنّ العصر هو عصر الصورة والتكنولوجيا، فلا مناص من اقحام الصورة في كل أوجه الحياة وتفاصيلها. لكننا إزاء قراءة فنية لشكل من أشكال الفنون، وهو ما يحيلنا على تداخل الفنون وتشابكها وتفاعلها، في نسج رؤية معينة عن ظاهرة ما. "وقد أوضح الفن دائما تطور المفاهيم العقلية للفضاء، والتغيرات الكبيرة التي حدثت في تمثيل الفضاء في الفنون، مع مرور الوقت والحضارات، هي دليل واضح على ذلك"[11].

وفي الحديث عن معمارية الصورة، لا بد من الإشارة الى الحركة التصويرية Le mouvement pictural في العمارة الأوروبية في بداية القرن 19، التي تمثل إرهاصات العلاقة القائمة بين الصورة والعمارة، خاصة في جانب الحث على الاهتمام بالتراث المعماري والعمراني، "وهي حركة رومنتيكية مثلها مثّل إحياء الطرز الكلاسيكية ثورة ضدّ القبح وسوء أحوال المدن بعد الثورة الصناعية، والهروب إلى الضواحي والريف، واكتشاف جمال المنازل الريفية في الطبيعة، وتصويرها في لوحات جميلة"[12]. حيث اعتبرت الصورة في جانبها التشكيلي ملاذا للفنانين، برفض الأنماط المعمارية الدخيلة والمستحدثة.

2.3 صورة مطماطة من خلال الطوابع والبطاقات البريدية:

ككل أشكال الفنون، مرت الصورة بمراحل تطورت من خلالها تقنياتها المستخدمة. حيث مثلت التكنولوجيا فيصلا بين مرحلة ومرحلة أخرى. أصبحت اليوم البطاقات البريدية

تسمية قديمة تذكرنا بعبق الهدايا ورونق الرسائل والمراسلات البريدية وذكريات السفر. حيث عمد في المناطق السياحية، كما هو الحال في **مطماطة**، على توفير بطاقات بريدية تحمل صورا من مشاهد جميلة لها. مثلت إشهارا وسلعة تجارية لتدعيم السوق السياحية. وبمشاهدة بعض البطاقات القديمة المنشورة على الشبكة العنكبوتية، يمكن التأكيد على إننا إزاء مكان لا يشبه البتة الحالة التي هو عليها اليوم، بسبب الزحف العمراني لأنماط معمارية دخيلة وغير متجانسة.

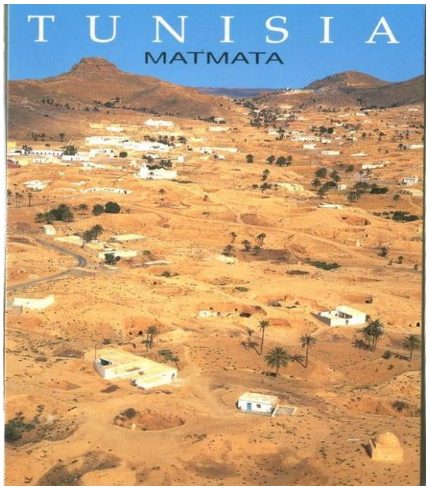

الشكل 3: بطاقة بريدية قديمة تظهر مشهدا علويا لمطماطة في فترة قديمة.

المصدر:

http://cultpatr.blogspot.com/2013/08/cartes-postales-matmata.html

أما فيما يخص الطوابع البريدية، والتي بدأت فكرة استعمالها كعملة يسدد بها رسوم نقل الرسائل. فهي ليست مجرد شكل يتصدر واجهة كل رسالة، بل هو شكلٌ فنيٌ هادفٌ. حيث يشكل الطابع في حد ذاته رسالة غير مباشرة لتاريخ منطقة معينة وثقافتها. فالطوابع البريدية هي صورة فنية توثق الآثار واللوحات الفنية وحتى نمط معماري لمنطقة ما. ففي أحد أعمال البريد التونسي في ما يخص الطوابع البريدية، تمّ إصدار طابع بريدي ضمن

موضوع مواقع ومعالم، بعنوان **مدينة مطماطة** وبتاريخ 1954/05/29. ويحتوي هذا الطابع على صورة لحوش حفر من الأعلى. يمكن تقسيم هذه الصورة الى جزئين : خلفية علوية، وهي مستوى سطح الأرض، حيث مشهد طبيعي للبيئة المحيطة، أين نجد انتشارا للنخيل بشكل غير منتظم وعلى مستويات متفرقة. ثمّ الجزء الثاني من الصورة حيث زاوية من "مهراس" لهذا الحوش، أين تنتشر عدة "ديار" وغرف محفورة على أكثر من مستوى.

والملفت للانتباه هو أن جدران هذا الفناء مدعومة بالحجارة، ويمكن إرجاع هذه الإضافة لسبب تقني، ولآخر إستطيقي، فعمد إلى إظهار فتحات "الغيران" المحفورة بشكل مقوس يحتوي الشكل الأصلي لهذه المداخل. ولا مناط من الإشارة إلى أن هذه النزعة الجمالية من خلال إضافة لمسات مختلفة عن النمط السائد، هي في الغالب دليل على ثراء أصحاب هذا المنزل، "فرغم ما يبدو على هذه المجتمعات من نزوع نحو المساواة في طرق العيش والبناء إلا أن تراتبية اجتماعية تبدو أحيانا في بعض المساكن المتميزة بمساحتها وعدد غرفها أو بالمجهود الانشائي والزّخرفي المبذول في عدد من مكوّناتها المعمارية "[13].

الشكل 4: صورة للطابع البريدي بعنوان: مدينة مطماطة.

المصدر: http://www.tunisia-stamps.tn/arabic/1954/f0555.htm

الشكل 5: مثال لأنواع البناء الجديد والأنماط الدخيلة عن منطقة مطماطة.

المصدر: المؤلف

3.3 بين الصورة الفوتوغراقية والصورة السينمائية:

"لا تستطيع الصورة الفوتوغرافية الخداع، كما لا يقوى شيء على إضعافها. فهذه الآلة الرائعة لا تقبل الإضافة أو الحذف. إذ ندرك بأن ما نراه ينبغي أن يكون هو الحقيقة. لذا حين ننقاد اليها نستطيع السفر إلى كل بلدان العالم من دون التحرك من مكاننا"[14]. فتعدّ الصورة الفوتوغرافية بمثابة البرهان عن الأشياء المشكوك في أمرها، والتي نسمع عنها لنتأكد من واقعيتها بمجرد رؤية صور توثق وجودها، كما هو الحال بالنسبة للسائح الذي يزور **مطماطة** لأوّل مرة، فإنّه سيصاب بشيء من الدهشة، تجعله يفكر في وصف دقيق لتجربته الغريبة والخيالية. فعن طريق الصورة الفوتوغرافية "يتجلى الطابع الذاتي للفضاء بصورة عالية، وهنا تتقاطع لقطات العين الأدمية مع عدسات الكاميرا في استجلاء كنه هذا المكان، هذه العمارة التي خلقتها مخيلة بناتها" [15]. وتنتهي هذه التجربة غالبا بنشر السّياح لصورهم الخاصة بهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي مرفقة بوصف يبرز مشاعرهم تجاه هذه التجربة، لتتأكد العلاقة التواصلية بين العمارة والمتلقي عبر فعل التصوير. لذلك "فإنّ التجربة القوية في مجال الهندسة المعمارية تحوِّل انتباهنا إلى ما هو خارجها، القيمة الفنية للأعمال

المعمارية العظيمة ليست في وجودها المادي أو جوهرها الجمالي ولكن الصور والعواطف التي تستحضر عند مشاهدتها"[16].

وإذا ما بحثنا عن صور **مطماطة** المنشورة عبر الانترنت، فإننا سنجد العديد من الصور والمشاهد، في فترات مختلفة، منذ بدايات التجربة السّياحية للمنطقة. وهو ما يدعونا إلى مقارنة بين الماضي والحاضر للمشهد العام ب**مطماطة**. ويمكننا من الحديث عن تغيير في نمط العيش، حيث توثق بعض الصور القديمة، نمط عيش سكان **مطماطة** وثقافتهم التي تغيّرت كليا اليوم. فأصبحت العائلة التي تستقبل الزّوار في بعض المساكن الحفرية مجرّد صورة مصطنعة وسلعة سياحية، تتغيّر بعد انتهاء فترة الاستقبال بتغيير مكانهم ولباسهم ونمط عيشهم، وفق ما يمليه هذا العصر.

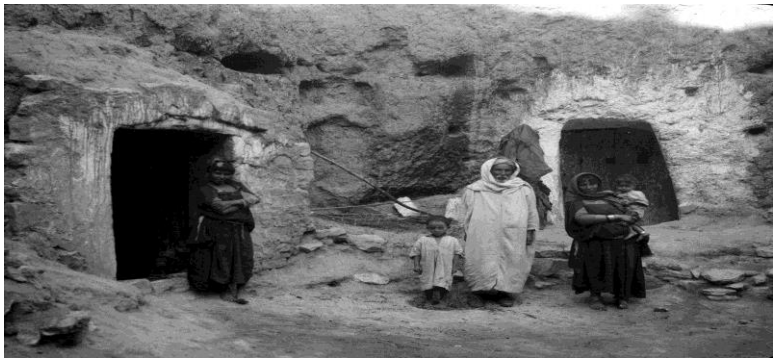

الشكل6: صورة بعنوان عائلة و منزلهم الحفري بمطماطة قابس بتاريخ 1930 لبول كولار

المصدر: http://archnet.org/media_contents/128784

أما عن التجربة السينمائية، فقد فتحت التجربة السّياحية المجال أمام محبي الاستكشاف والاستطلاع والباحثين عن كل ما هو مشوق وغير مألوف، نظرا لطبيعة تضاريس المنطقة ونمط عمارتها وثرائها الثقافي، وهي عناصر جذب سياحية وبحث ميداني. وهذا ما فتح الأبواب أمام بعض المخرجين والسينمائيين، لتوظيف مجال **مطماطة** كديكور لتصوير مشاريعهم. وفي الحقيقة لا يمكننا المرور بعالم السينما دون الحديث عن أهمّ تجربة

سينمائية صورت في المنطقة. فاختيار مساكن **مطماطة** لتصوير مشاهد من فيلم **حرب النجوم** الذي يعد نقلة نوعية في عالم السينما، هي بمثابة الانطلاقة الحقيقة للمنطقة نحو العالمية.

حرب النجوم هو عبارة عن سلسلة أوبرا فضاء ملحمية من ابتكار **جورج لوكاس** George Lucas[17]. "تستعرض قصة خيالية في مجرّة بعيدة جدا عن المجموعة الشّمسية، حيث يعيش شاب في مزرعة نائية في كوكب صحراوي بعيد يتلقى ذات مرة رسالة من أميرة مختطفة، فيستجيب لنجدتها. لتنطلق سلسلة من الأحداث والمغامرات تجمع ثلّة من الشخصيات الغريبة والخيالية. ثم تستعرض القصة صراع بين قوى الخير وقوى الشر، باستعمال مركبات فضائية، في عرض خيالي لسلسة من المغامرات والمطاردات المثير. وصورت مشاهد من السلسلة الأولى لفيلم **حرب النجوم** في مطماطة سنة 1976"[18]. حيث استعمل "مهراس" أحد أجزاء نزل **سيدي إدريس** الحفري كديكور فيلمي، وأضيفت بعض اللمسات المستوحاة من المركبات الفضائية في مدخل الأبواب وفي مركز المهراس. وهي ما أضفت عامل الواقعية خدمة لفكرة الفيلم. هذا ما يؤكد "إن معالجة الفضاء في السينما، هو الذي سيبين للهندسة المعمارية أنه من السهل نقل المشاعر من خلال صناعة الفضاء"[19]. وخصص هذا الديكور كمنزل لعائلة **لارس**Lars، وفيها **لوك سكايولكر** Luke Skywalker، أحد الشخصيات الخيالية التي تقمصت دور البطولة في هذه السلسلة وعمته **بيرو لارس** Beru Lars، وعمّه **أوين لارس**Owen Lars ..

الشكل 7: مشاهد من حرب النجوم بنزل سيدي ادريس الحفري بمطماطة.

المصدر: http://www.tourisme-sud-tunisien.com/infos/activity/103/Starwars-Matmata-Hotel-Sidi-Driss

تبحث السينما عن أماكن واقعية تخدم فكرة السيناريو، وستجد هذه الأمكنة في ما بعد رواجا سياحيا كبيرا ونقطة انطلاق نحو مفهوم جديد، يصبح من خلالها تاريخها المعماري قالبا. و"إذا عرفت سابقا في مشاركتها في إنتاج الخيالي، فإنّ السينما لم تعد أكثر مخترع للأماكن بل هي مستخدم معين لمحتوى موجود مسبقاً"[20].

تمَّ تصوير مشاهد أخرى من هذه السلسلة سنة 2000، وفي المكان نفسه من **نزل سيدي إدريس**، الذي حافظ على ديكور التجربة الأولى. وقام فريق العمل بأشغال إعادة تهيئة دامت شهرا كاملا لتصوير 20 دقيقة. وهو ما يؤكد على أهمية المكان في نجاح العمل السينمائي. وذلك بسبب الشهرة التي اكتسبتها أغلب الأمكنة التي اختيرت لتصوير مشاهد من هذه التجربة في الجنوب التونسي[21]، "وفي حين أنه لا توجد إحصاءات عن **مطماطة (...)**، فإنّ السياحة في تونس قد نمت بشكل كبير، من أقلّ من مليون زائر أجنبيّ في عام 1976، (...) إلى 4.8 مليون زائر في عام 1999. فقد تضخمت عائدات السياحة من 86 مليون

دولار في عام 1976 إلى 1. 3 مليار دولار في عام 1999، عندما احتلت السياحة المرتبة الثانية بين أكبر الصناعات في تونس، بعد المنسوجات[22].

مكّنت تجربة **حرب النجوم** ب**مطماطة** من استقطاب تجارب سينمائية أخرى، حيث صُوِّر فيلم **الذهب الأسود** Black Gold سنة 2011 للمخرج الفرنسي **جون جاك آنو** Jean- Jacques Annaud ، وفيلم **أنا معك** Io sono con te سنة 2010 للمخرج الإيطالي **قيدو كييزا** Guido Chiesa، تجربة **حرب النجوم** ب**مطماطة** من استقطاب تجارب سينمائية أخرى، علاوةً على عدّة أفلام وثائقية وبرامج تلفزيونية تبحث دائما في خبايا إرث متخف بين الجبال، وتعلن بالخط العريض عن اكتشافها لعمارة تحت الأرض. وفي الحقيقة اضطلعت هذه الأعمال بدور مهم في توثيق هذا النمط، ومثلت دعاية ساهمت في إشعاع صيت هذه المنطقة عالميا. ومن هذه الأعمال نذكر: البرنامج التلفيزيوني **قالت لي** لقناة **الغد الإخبارية.** يلقي البرنامج الضوء على علاقة النخب الثقافية بمدنهم. إذ اختير الروائي والكاتب **عثمان الأطرش،** وهو ابن المنطقة، لتصوير الحلقة الموسومة ب **مطماطة...هوليود تونس مع الكاتب عثمان الأطرش.** تطرح فكرة البرنامج علاقة الكاتب بمدينته من خلال إصداره لروايته الأولى، والتي تحمل اسم **مطماطة** بالنسبة ل**عثمان الأطرش،** لتصور العلاقة القائمة بين المكان والأفراد وثمراتها الأدبية في برنامج مصور. توضح أثر تركيبة المكان بكل تفاصيله العمرانية والجغرافية في تحديد المنحى الأدبي للكاتب. حيث يؤكد **عثمان الأطرش** من خلال هذا البرنامج على أن "الكاتب لا يمكن أن يكتب خارج الذاكرة وخاصة إصداره الأوّل الذي لن يخرج عن ذاته"[23].

العمل هو عبارة عن مشاهد مصورة بتقنيات عالية الدقة، تبرز تفاصيل عدة أماكن من منطقة **مطماطة** وتضاريسها الوعرة. كان ذلك بحضور الكاتب **عثمان الأطرش** وهو

يتحدث بشكل شاعري عن مدينته وعن تجربته الروائية المستوحاة من هذا الإطار. "تمّت الإشارة في أحد المشاهد عن حقيقة تسمية **مطماطة** ب**هوليوود تونس**، والتي تعود إلى الكلمات الترحيبية في مدخل المدينة بثلاثة لغات على الطريقة" الهوليوودية"، وفي الحقيقة تجد هذه التسمية رواجا كبيرا نظرا للشهرة السينمائية التي اكتسبتها المنطقة"[24].

يشير **عثمان الأطرش** "بأن عشق المدن ليس ككل عشق، **مطماطة** هي أشواق وأشواك، أشواق ابنها المبعد عنها وأشواك جبلها. وحتى حينما ألتقيها، أشواكها تتحوّل الى أشواق"[25]. مثلت هذه التجربة شكلا تصويريا يرسم تماهي العلاقات القائمة بين العمارة والأدب والسينما، "فالفيلم الوثائقي بمثابة مرآة لكنها مواكبة ومتطورة تعكس فيها رؤيتنا للأشياء والأشخاص والأماكن التي من حولنا، نكتشف فيها الغموض لنبرز المعاني والقيم التي تكتنفها فمن خلال إنتاج هذا النوع من البرامج نستطيع تناول مواضيع تبحث في الإنسان وأرضه وثقافته متمثلة في نشاطه الاجتماعي والإقتصادي ومعتقداته ونتلمس حياة الناس الواقعية"[26].

لم تقتصر التجربة السينمائية ب**مطماطة** على هذا الحد، بل تدعمت فكرة **مطماطة هوليود تونس** بمهرجان سينمائي، وهو محاولة من بعض أبناء المنطقة الممثلين بجمعيات، نذكر منها **جمعية صيانة المدينة**. حيث عمد إلى طرح فكرة مدروسة بالتشاور مع أهل الاختصاص من أساتذة وأكاديميين ومخرجين. وتمّ تأسيس مهرجان دولي للسينما سمي **أثواب**. انطلقت فعاليات الدورة الأولى من هذا المهرجان سنة 2017، لكن الإرادة الوطنية لا زالت ناقصة، إذ تواجه هذه التظاهرات صعوبة في التمويل أدت إلى إلغاء دورات المهرجان إلى أجل غير مسمى.

4. خاتمة:

حققت عمارة **مطماطة** مفهوم الاستدامة بشكل عفوي، فهي شكل معماري منبثق من رحم الأرض، تتماهى كل عناصرها مع الطبيعة والمحيط، لتعالج إشكاليات يطرحها هذا المجال الجبلي. وهو ما يؤكد إن العلاقة بين السكن وبيئته ليست فكرة عشوائية لدى الأجداد المبتكرين لهذا النمط. بل هي فرضيات استندت على إرث عميق من التجارب والتعلّم. ليصلنا الشكل النهائي من "حوش الحفر" صامدا ومتماهيا مع المجال، في صورة تبعث على النفس شيء من الاستغراب الممزوج بالفرحة في تلقي عمارة **مطماطة** أرض السعادة.

وهو ما تؤكده التجارب الثرية والمتميزة التي مرت بها المنطقة. فتحوّل حوش الحفر من مجرّد شكل سكني إلى مزار ومتحف وفندق سياحي وحتى ديكور سينمائي، تلتقط فيه الصور من مختلف زواياه. حيث سايرت الصورة مرحلية تطور المنطقة بشكل محايد، وأوضحت صيرورة المكان، من خلال التجارب العديدة التي خاضتها **مطماطة** التي تشهد اليوم ركودا سياحيا وهجرة أبنائها. اذ انتشرت أشكالٌ وأنماطٌ دخيلة وغير منتظمة مشيّدة فوق سطحها، كما سقطت عدة أحواش بسبب الإهمال وقلّة الترميم، وأصبح البعض خرابا ينتظر موعد سقوطه، ماعدا بعض المساكن التي ظلّت صامدة كنقاط عبور للسياح.

خلاصة لهذا يمكننا إدراج جملة من التوصيات في شكل نتائج بحثية، بعد أن سايرنا المراحل والتجارب التي مرت بها **مطماطة** وهي كالآتي:

* بعث مركز بحث ب**مطماطة** في أحد المساكن الحفرية، حيث تجمع البحوث والمشاريع العلمية التي تصبّ في موضوع هذا المجال. ويمكن هذا المركز من تنظيم ندوات وملتقيات علمية، يجمع الباحثين والمهتمين بدراسة هذا المجال في شتى الاختصاصات.

* التعاقد مع البلدية لتنظيم كراس شروط خاص بالبناء، يؤكد على استلهام التراث المحلي. استنادا على بحوث المدرسة الوطنية للعمارة والتعمير بتونس وكليات الفنون الجميلة. التي اشتغلت على إعادة تهيئة وبعث أفكار مشاريع تقوم على مفهوم النمط المحفور. مع محاولة تقريب المساكن المشيدة والمختلفة إلى النمط المحفور من خلال فرض توحيد الألوان مثلا.

* إشراك المجتمع المدني عبر الجمعيات، والحث على العمل الجمعياتي، لاستقطاب شراكات مع الجمعيات العالمية التي تعنى بالتراث، وتبحث على نشر قيم الاستدامة والمحافظة على البيئة والعمارة التقليدية عبر الفن والسينما خاصة.

* العمل على نشر ثقافة السياحة المستدامة، وهي توجه سياحي محبذ، يساهم في الحفاظ على البيئة ويخدم التراث المعماري والعمراني.

* بعث جمعية سينمائية بالمنطقة، وقاعة سينما في منزل حفري. فبهذا الشكل الفريد لقاعات السينما، يمكن استقطاب المزيد من مُحبي السينما، وتحقيق فرص تصويرية جديدة في المنطقة. وتكرِّس الجمعية السينمائية مجال السينما البيئية، التي يجب أن تضع الاهتمام بالبيئة والحفاظ على تراث المنطقة من أولويات اشتغالها.

5.الهوامش:

[1] النوري بوخشيم، التعمير والعمران بجبل مطماطة، منشورات وحدة بحث الجبال والسهول ببلاد المغرب عبر العصور: الآثار والتراث، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، 2019، ص. 31.

*اللوس أو الغرين: طبقات سميكة من التربة الطينية والرملية تراكمت على فترات من الزمن بين أحواض الجبال، وهو ما أسس لتشكلات مورفولوجية متنوّعة مثلت عاملا أساسيا لحفر الأحواش. ينظر: المرجع السابق، ص.31.

[2] تربة متماسكة وغير نافذة.

[3] يطلق على مساكن مطماطة محليا "حوش الحفر" . ينظر: زينب قندوز، أحواش قبلي القديمة: بناءات "طبيعية" وموجودات نماء، مجلة جماليات(الجزائر، جامعة مستغانم، مختبر بحث الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية)، العدد:3، ديسمبر 2016.

[4] النوري بوخشيم، قرية هداج بجبل مطماطة، بحوث في التاريخ والجغرافيا والحضارة، تونس، مركز النشر الجامعي، دار المعلمين العليا بتونس، 2015، ص.72.

[5] رقية كيوة، رضا الرقيق وبقية الفريق، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، دراسة تحت إشراف وزارة التجهيز والإسكان والتهيئة الترابية، تونس، 2003، ص.126.

[6] النوري بوخشيم، قرية هداج بجبل مطماطة، بحوث في التاريخ والجغرافيا والحضارة، مرجع سابق، ص.74.

[7] النوري بوخشيم، تثمين الموارد التراثية وإشكالية تنمية المناطق الجبلية : أمثلة تطبيقية في جنوب شرق البلاد التونسية: جبلي مطماطة ودمر، أعمال المؤتمر الدولي حول اقتصاد التراث، أي مساهمة في التنمية المستدامة للمجالات الهشة بالواحات والمناطق الجبلية، المغرب ورزازات، 2 و3 ماي 2017، ص. 291. مقال متاح على الرابط: https://www.academia.edu/37540046/

[8] محمد بالراشد، مطماطة "الحوش من المخزن الفلاحي الى الفندق السياحي"، مجلة الإتحاف(تونس)، العدد:77، 1 مارس 1997، ص.13.

[9] المرجع نفسه ، ص.13.

[10] قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، عمان، الأردن، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط.1، 2007م، ص.24-25.

[11] Elisabeth Károlyi, l'influence du cinéma sur l'architecture, le cas de Jean Nouvel, Mémoire de maîtrise d'histoire de l'art, Université Paris I Panthéon Sorbonne, Paris, 2002, p.47.

[12] عرفان سامي، عمارة القرن العشرين، الجزء الأول، القاهرة، دار نافع للطباعة والنشر، 1978، ص.25.

[13] النوري بوخشيم، قرية هداج بجبل مطماطة، بحوث في التاريخ والجغرافيا والحضارة، مرجع سابق، ص.72.

[14] Joan M, Schwarz, The Geography Lesson : Photographs and the construction of imaginative geographies, Journal of historical Geography, published by Elsevier, United State, Volume 22, N°1, January 1996, p.16.

[15] شاكر لعيبي، العمارة السوريالية، قراءة معمارية وجمالية في عمارة مطماطة وتطاوين وجبل نفوسة، تونس، دار ديار للنشر والتوزيع بتونس، 2018، ص. 27.

[16] Juhani Pallasma, The Existential Image: Lived Space and Architecture, Phainomenon (Lisboa, Journal Of Phenominological Philosophy), n.º 25 (2012), Monographic Section: Phenomenology and Cinema, p. 173.
http://phainomenon-journal.pt/index.php/phainomenon/article/view/327

[17] صانع أفلام أمريكي، (ولد في 14 مايو 1944)، واشتهر بانتاجه لسلسلة الأفلام حرب النجوم Star wars (سنة 1977) واندیانا جونز Indiana Jones (1984).

[18] Elisabeth Lehmann ,Following Luke Skywalker's footsteps in Tunisia, Accessed 20/03/2020 Available at :
https://www.dw.com/en/following-luke-skywalkers-footsteps-in-tunisia/a-18916869.

[19] Elisabeth Károlyi, l'influence du cinéma sur l'architecture, le cas de Jean Nouvel, Mémoire de maîtrise d'histoire de l'art, Université Paris I Panthéon Sorbonne, Paris, 2002, p.52.

[20] Georges-Henry Laffont and Lionel Prigent, Paris transformé en décor urbain, Les liaisons dangereuses entre tourisme et cinéma, Téoros (Revue de recherche en tourisme, Québec Montréal), 30 – 1, 2011, p.113.
URL : http://journals.openedition.org/teoros/1196

[21] اختار جورج لوكاس George Lucas صاحب فكرة سلسلة حرب النجوم Star wars، بعد زيارته للجنوب التونسي، عدّة مواقع لتصوير مشاهد من سلسلته على غرار مطماطة، حيث صُوِّرت مشاهد أخرى في عنق الجمل وقص الحدادة من ولاية تطاوين في الصحراء التونسية.

[22] Jeeheon hahm, Assessing The impact Of Movies Upon and Individual's Image Formation Concerning a Given Destination, A thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Science, Orlando, Florida, University Of Central Florida, 2004, p.6. Consulted at 25/03/2020.
www.researchgate.net › publication › 47715562_ASSESS

[23] عثمان الأطرش، قالت لي/ قناة الغد، الإصدار الأول للكاتب لا يمكن أن يكون خارج الذاكرة، تم الاطلاع عليه يوم 2020/03/22 على الساعة 10:30، (ملف فيديو)، متاح على موقع:
https://www.youtube.com/watch?v=c7w_mG1tiTo&list=PLBPmhDfEfvB_A6QRbTe2Cz
. ys3vSSH7zw6&index=14

[24] عثمان الأطرش، قالت لي/ قناة الغد، تتحرك ذاكرة الطفولة حينما أقف بين جبال مطماطة، تم الاطلاع عليه يوم 2020/03/22 على الساعة 17.15، (ملف فيديو)، متاح على موقع:

https://www.youtube.com/watch?v=0A_s_SLkrRU&list=PLBPmhDfEfvB_A6QRbTe2C
. zys3vSSH7zw6&index=13

[25] عثمان الأطرش، قالت لي/قناة الغد: مطماطة هي أشواق وأشواك، تم الإطلاع عليه يوم 2020/03/22 على الساعة 18، (ملف فيديو)، متاح على موقع :
https://www.youtube.com/watch?v=5USOCKU0T7Y&list=PLBPmhDfEfvB_A6QRbTe2
. Czys3vSSH7zw6&index=16

[26] هبة عبد الرحيم منير علي، الفيلم الوثائقي ودوره في تعزيز السياحة في السودان، بحث لنيل درجة الماستر في علوم الاتصال، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان، 2015، ص.43.

6. قائمة المراجع:

1.6. المراجع العربية:

1.بوخشيم (النوري)، التعمير والعمران بجبل مطماطة، منشورات وحدة بحث الجبال والسهول ببلاد المغرب عبر العصور: الآثار والتراث، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، 2019.

2. بوخشيم (النوري) ، النوري بوخشيم، قرية هداج بجبل مطماطة، بحوث في التاريخ والجغرافيا والحضارة، تونس، مركز النشر الجامعي، دار المعلمين العليا بتونس، 2015.

3. سامي (عرفان)، عمارة القرن العشرين، الجزء الأول، القاهرة، دار نافع للطباعة والنشر، القاهرة، 1978.

4. عبد الله ثاني (قدور)، سيميائية الصورة، عمان، الأردن، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط.1، 2007.

5. كيورة (رقية)، الرقيق (رضاء) وبقية الفريق، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، تونس، دراسة تحت إشراف وزارة التجهيز والاسكان، .2003

6. لعيبي (شاكر)، العمارة السوريالية، قراءة معمارية وجمالية في عمارة مطماطة وتطاوين وجبل نفوسة، تونس، دار ديار للنشر والتوزيع بتونس، 2018.

2.6. الدوريات:

1. بالراشد (محمّد)، مطماطة "الحوش من المخزن الفلاحي إلى الفندق السياحي"، مجلة الإتحاف (تونس)، العدد:77، 1 مارس1997.

3.6. الدوريات الأجنبيّة:

1. Laffont. Georges-Henry and Prigent. Lionel , « Paris transformé en décor urbain », *Téoros*, (Revue de recherche en tourisme, Québec Montréal) 30 - 1 | 2011, 108-118.
URL : http://journals.openedition.org/teoros/1196
2. Pallasma. Juhani, The Existential Image: Lived Space and Architecture, Phainomenon (Lisboa, Journal Of Phenominological Philosophy), Nº 25 (2012), Monographic Section: Phenomenology and Cinema.
http://phainomenon-journal.pt/index.php/phainomenon/article/view/327
3. Schwarz. Joan M, The Geography Lesson : Photographs and the construction of imaginative geographies, Journal of historical Geography, published by Elsevier, United State, Volume 22, N°1, January 1996, 16-45.

4.6. المذكرات الجامعيّة:

1. عبد الرحيم منير علي (هبة)، الفيلم الوثائقي ودوره في تعزيز السياحة في السودان، بحث لنيل درجة الماجستير في علوم الاتصال، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان، سنة 2015.

5.6. المذكرات الجامعيّة الأجنبيّة:

1. Hahm. Jeeheon, Assessing The impact Of Movies Upon and Individual's Image Formation Concerning a Given Destination, A thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Science, Orlando, Florida, University Of Central Florida, 2004.
www.researchgate.net › publication › 47715562_ASSESS

2. Károlyi. Elisabeth, l'influence du cinéma sur l'architecture, le cas de Jean Nouvel, Mémoire de maîtrise d'histoire de l'art, Université Paris I Panthéon Sorbonne, Paris, 2002.

6.6. الملتقيات العلمية:

1. بوخشيم (النوري) ، تثمين الموارد التراثية وإشكالية تنمية المناطق الجبلية : أمثلة تطبيقية في جنوب شرق البلاد التونسية: جبلي مطماطة ودمر،أعمال المؤتمر الدولي حول اقتصاد التراث، أي مساهمة في التنمية المستدامة للمجالات الهشة بالواحات والمناطق الجبلية، المغرب ورزازات، 3 ماي 2017. https://www.academia.edu/37540046/

7.6. المواقع الالكترونية:

1. https://www.dw.com/en/following-luke-skywalkers-footsteps-in-tunisia/a-18916869 .
2.https://www.youtube.com/watch?v=c7w_mG1tiTo&list=PLBPmhDfEfvB_A6QRbTe2Czys3vSSH7zw6&index=14.
3.https://www.youtube.com/watch?v=0A_s_SLkrRU&list=PLBPmhDfEfvB_A6QRbTe2Czys3vSSH7zw6&index=13
4.https://www.youtube.com/watch?v=5USOCKU0T7Y&list=PLBPmhDfEfvB_A6QRbTe2Czys3vSSH7zw6&index=16